دوافع تشكُّل الاستبداد وسُبلِ إنفاذه في ضوء القصة القرآنيَة *

د. نذير نبيل الشرايري **

* تاريخ التسليم: ١٠/ ٢/ ٢٠١٤م، تاريخ القبول: ١٦/ ٣/ ٢٠١٤م.
** أستاذ مساعد في التفسير وعلوم القرآن/ جامعة طيبة/ المملكة العربية السعودية.

ملخص:

تهتمّ هذه الدّراسة بقضية من أكثر القضايا حساسيةً في زماننا، وقد وسمتها بعنوان: دوافع تشكّل الاستبداد وسُبلِ إنفاذه في ضوء القصة القرآنية. وقد درست توجيهات الوحي الإلهي التي يمكن من خلالها فهم دوافع الاستبداد وسبل إنفاذه، وذلك كله من خلال القصة القرآنية بأسلوب جمعت فيه بين القصص القرآني ذي الموضوع الواحد، بأسلوب مختصر ومباشر.

ففي جانب الدوافع وقفت مع توهُّم الألوهية وممارسة الوصاية الفكرية وضغوط الملأ. وفي سبل إنفاذ الاستبداد وقفت مع الإغراء بالمال، ونفي المصلحين أو قتلهم، وممارسة سياسة الإقصاء.

Motives of Formation of Oppression and the Ways of its Application Taken from the Quranic Narration

Abstract

This study is about the motivations behind the formation of despotism in the light of the Quranic stories. The researcher studied the Holy Quran and finds that one may easily understand these motivations. Dictators always tried to impose their ideas and exercise pressure on thinkers by using money, exiling reformers and marginalizing their roles, or, even, killing them.

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والصلاة والسلام على خير الورى، محمد النبي المجتبى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى، وبعد:

فهذه دراسةٌ أتقدّم بها بين يدي أهل العلم الباحثين عن الحق، في واحدٍ من أكثر الموضوعات حساسيةً؛ لما له من صلةٍ وثيقة بحال كثيرين في هذا الزمان، الذي تفشّى فيه الظلم واستعباد الخلق، وقد وسمتها بعنوان: **دوافع تشكّل الاستبداد وسبل إنفاذه في ضوء القصة القرآنية**.

ولا يخفى على المتأملين أن الاستبداد أضحى موضوع الأمس واليوم والغد؛ كيف لا وهو الممارسة الفكرية والسلوكية القمعية التي لم يقف أثرها عند أمةٍ، ولم ينتهِ بزمان، وإنما امتدّ لهيبه ليطال جماعاتٍ متعاقبةً تطاولت عليها قرون التعسف والاضطهاد، حتى أصبحت في ذيل قافلة الأمم، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً. فَسَادَ الفقر، وانتشرت الرشوة، وظهر الفساد في البرّ والبحر، وطغت الطبقيّة الاجتماعية، وعمّ الجهل، وظهرت الآفات التي لا تخفى على أحدٍ من الناس فضلاً عن العلماء والمفكرين.

من هنا أحسست بضرورة دراسة مفهوم الاستبداد، وإبرازه بصورته التي يبينها القرآن العظيم في جانب القصّة القرآنية خاصةً. ولا يخفى أن القصّة القرآنية واحدةٌ من أهم الأساليب القرآنية الداعية إلى مراجعة أخطاء الماضي، ومعالجة نوائب الحاضر. هذا وقد جاءت الدراسة مقسمة إلى مبحثين، جاء الأول في مطلبين، والثاني في ثلاثة مطالب. وقد قامت الدراسة على منهجين رئيسين من مناهج البحث وهما: الاستقراء والتحليل، بهدف استكناه ما في آيات القرآن العظيم من معان عظيمة في موضوع البحث.

التمهيد:

ذاع مفهوم الاستبداد حتى صرنا نسمعه على لسان كثيرين عبر وسائل الإعلام بمختلف صوره وأشكاله، فكان لا بدّ من الوقوف على هذا المصطلح ودراسته دراسةً واعيةً توضح مفهومه ودوافع تشكّله وسبل إنفاذه. وللوقوف على مفهوم الاستبداد أقف عند تعريفه لغة واصطلاحا، ومن ثَمَّ أقف عند طبيعة هذا المفهوم.

الاستبداد لغةً: مصدر (ب د د) وله في اللغة معانٍ عدّة. تقول العرب: «افتأت فلان علينا، إذا استبدّ علينا برأيه» [1] . وتستخدم العرب التبديد بمعنى «التفريق... وبدّد الشيء

إذا فرّقه، وتبدّد القوم إذا تفرّقوا». ويقولون أيضا «استبدّ بالأمر يستبدّ به استبداداً إذا انفرد به دون غيره «[٢] . فالاستبداد لغةً يدور حول معانٍ من أهمها الافتئات والتفريق والانفراد بالأمر. والافتئات لازمه الظلم، والتفريق والانفراد بالأمر لازمه الكيد والمكر وممارسة إقصاء الآخر.

الاستبداد اصطلاحاً: جاءت في ذلك تعريفات عدّة، منها أن الاستبداد «حكمٌ أو نظامٌ يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون النّظر إلى المحكومين». [٣] وقد عرّفه الكواكبي بقوله: «الاستبداد في اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمْع في حقوق قوم بالمشيئة المطلقة وبلا خوف تبعة» [٤] وهو التعريف المختار عندي لما يمتاز به من الاختصار والشمول.

وبعد هذا العرض لمفهوم الاستبداد أخلص إلى أن الاستبداد وجهٌ من أوجه الطغيان، والسيطرة على إدارة شؤون أمة ما بالقوة والسلطة ودون خوف تبعة. وقد جاء في تعريف مفهوم الاستبداد بأنه «التغلب والانفراد بالسلطة، والسيطرة التامة على مقاليد الدولة واغتصابها من الأمة دون مشورة ورضىً منهم» [٥] . ويمكن أن يضاف إلى ما سبق قيد يزيد التعريف دقّة ليصير: (التغلب والانفراد بالسلطة، والسيطرة التامة على مقاليد الدولة واغتصابها من الأمة دون مشورة ورضاً منهم ودون خوف تبعة) .

المبحث الأول:

دوافع تشكل الاستبداد في ضوء القصة القرآنية:

تبدي لنا القصة القرآنية دوافع متعددة، تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في بناء الاستبداد. وبالتحليل والمراجعة لمضامين القصة القرآنية أجد أن هذه الدوافع تنقسم باتجاهين. أحدهما ما يكون نابعا من شخصية المستبد وذاته، وثانيها ما يكون خارجاً عن ذاته، بمعنى أنه دافع خارجي.

وسأقتصر في هذا المبحث على دافعين اثنين، يُعدّان الأخطر والأكثر تأثيراً في تشكُّل الاستبداد. فعلى المستوى الذاتي يبرز عامل توهم الألوهية وممارسة الوصاية الفكرية. وعلى المستوى الخارجي يبرز عامل ضغوط الملأ.

◄ **المطلب الأول**:

- **توهم الألوهية وممارسة الوصاية الفكرية**:

يقول ربنا سبحانه: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ**

لي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ القصص: ٣٨. وفي هذه الآية شهادة بينة على أن توهم الألوهية دافع من دوافع ممارسة الاستبداد، ذلك أن فرعون قال للملأ من قومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، فهو من نصّب نفسه إلهاً، وهو من مارس الاستبداد بعد ذلك، بحجة الحاكمية المطلقة، بعد أن صار الجهل والسفه مُستحكماً في قومه.

واقرأ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ الزخرف: ٥٤. تجد أن مرحلة الاستخفاف أو التجهيل هي المرحلة التي تسبق ادّعاء الألوهية، ومن ثَمَّ ممارسة الاستبداد بمختلف أشكاله؛ السياسي والاقتصادي وغير ذلك. وما أحوجنا إلى التدبر فيما نراه اليوم من سياسات التجهيل المتعمدة التي تمارس بحقّ الشعوب، بهدف تمرير القرارات التي تسهل تلبية الطموحات اللّامشروعة وتوطيد دعائم الاستبداد.

ودقّة التعبير القرآني تبيّن أن خطاب فرعون لم يكن موجهاً إلى قومه ابتداءً، وإنما إلى الملأ من قومه وهم الأشراف [٦] ، مريداً بذلك» أن يثبتهم على عقيدة إلهيته» [٧] . ولا عجب في ذلك فهم خطُّ الدفاع الأول عن الألوهية المزعومة والحاكمية المصطنعة. وواضح أن المصالح المشتركة بين فرعون من جهة، والملأ من جهة أخرى ستجعلهم يستميتون في الدفاع عنه وتأييده؛ كيلا يخسروا مصالحهم هذا من جهة. ومن جهة أخرى ما تمليه عليهم عقيدة الفرعونية من الإيمان بأن فرعون هو الإله الأعظم لكل الآلهة في زمانهم.

ولما أمن فرعون مواجهة أشراف قومه لدعواه، وبعد تثبيته لفكرة ألوهيته، انتقل إلى مرحلة أخرى، يخبرنا بذلك ربنا سبحانه واصفاً فرعون بقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾٢٣ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ النازعات: ٢٣– ٢٤، ومن وراء هذا الترتيب القرآني بيان عجيب، ذلك أن الحاكم لا يجرؤ على التدليس والمخادعة والاستبداد بمختلف صوره إلا إذا وافقه عِليَةُ القوم على كذبه وتدليسه. فهو ابتدأ بأشراف القوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى مجموع قومه وشعبه، وفي هذا من بديع النظم ما يعكس المعاني التي تفسّر طبيعة المستبد الذي يمارس استبداده وظلمه وطغيانه، بادئا باستمالة أشراف قومه وإقناعهم بأفكاره، منتهيا باستعباد شعبه وفرض مبادئه ومعتقداته الفكرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية، وهو جوهر ممارسة الوصاية الفكرية.

ويشهد مضمون الآيات السابقة للآية الكريمة أن خطاب فرعون للملأ مغاير في الأسلوب لطريقة خطابه مع شعبه. ففي خطابه للملأ اتبع أسلوب النفي والإثبات المسبوق بفرض الوصاية الفكرية، وافتتح دعواه بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ﴾ مقرراً بذلك أنه الوصيُّ على علمهم وتفكيرهم، فما علِمه كان حقاً، وما جهله أو غاب عنه كان محض افتراء. ولما

قدَّم لدعواه بين يدي الأشراف بدعوى الوصاية الفكرية، أردف ذلك بالنفي والإثبات، فكان مجموع كلامه أن قال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾. وقوله: ﴿**مِنْ إِلَهٍ**﴾ أفاد الاستغراق وغرضه المبالغة في نفي وجود إله سواه.

ومبتغى فرعون من مقالته إنكار ما يقوله موسى عليه السلام مُصلح عصره وزمانه، ولما تعارضت مصلحة المستبد مع ما يريده المصلِح، التفَّ المفسد على المصلح وكذّب دعواه بالطريق غير المباشر ابتداءً، وبخاصة إذا كانت حجة المصلح دامغة بيِّنة لا لبس فيها. وهذه من حيل المستبدين الذين يتحايلون على الحقائق، فلا ينكرونها مباشرة بادئ الأمر، وإنما يلتفون عليها التفافاً، وبخاصة عندما تضعُف حجتهم، فإذا ضعفت حجتهم واجهوا المصلحين بالقتل والتشريد. أما خطابه لشعبه وأمته فكان خطاباً حازماً شديد اللهجة، ذلك ما نجده في أسلوب التصريح المباشر بقوله: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾، بمعنى أنا وليس غيري، أنا فقط.

وما يميز المستبدين أنهم يميلون إلى التمويه على أقوامهم، مستغلين عدم قدرة بعضهم على مواجهة المستبد خوفاً من ظلمه وجبروته، وسذاجة بعضهم وسرعة تصديقهم للدعاوى الباطلة حتى لو كانت بيّنة البطلان. ففرعون قال: ﴿**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾. وقد روي في تفسير هذه الآية الكريمة روايات إسرائيلية لا أرى حاجة لسوقها في هذا المقام [٨]، ويكفينا من الآية الكريمة ما نستخلصه من عبر تُظهر الشبه بين المستبدين قديماً وحديثاً، فأساليب المخادعة والتدليس، وممارسة سياسة التضليل عبر الدّعاية الخدّاعة هي سبيل المستبدين إلى إنفاذ ما يشتهون.

◄ **المطلب الثاني**:

● **ضُغوط الملأ**:

يجد الناظر في قصة فرعون أن للملأ دوراً خطيراً في دعم الاستبداد بمختلف صوره، وقد يكون ذلك بدافع الخوف، أو المصلحة، أو الإفساد أو قل ما شئت. فلكلٍّ علةٍ تخطر في بالك وجْهُ تعلّقٍ بين المستبدّ الذي هو رأس الهرم في سلطة الحكم، وبين المستبدين الداعمين لحركة الاستبداد الذين هم أشراف القوم وعليته.

وقد كان للملأ من قوم فرعون دورٌ خطير في محاولة تعطيل حركة الإصلاح، وإظهار المصلِح بصورة المفسِد. ويظهر دورهم جلياً في دعم الاستبداد الفرعوني من خلال مواقف متعددة، من أهمها ما ذكره سبحانه وتعالى عن مشورة فرعون لهم، فيما يجب فعله بعد أن أظهر موسى عليه السلام حجته ومعجزاته أمامهم، في سبيل دعوتهم إلى الحق والإصلاح.

وبطبيعة حال المستبدين المتشابهة، فإن سبيل المحافظة على المكتسبات هو الإنكار والتهكم بكلّ من ينادي بالإصلاح والهداية. وهنا يبدأ دور الملأ الدّاعم لحركة الاستبداد، فهم الحلقة المحيطة بالاستبداد الفرعوني الحريصة على تقديم المشورة له. يشهد لهذا قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** (٣٤) **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** (٣٥) **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** (٣٦) **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** (٣٧)﴾ الشعراء: ٣٤– ٣٧، إذ تشهد الآيات الكريمات بأن للملأ دوراً بارزاً في صياغة القوانين التي تنظم السياسة الداخلية للدولة وتشريعها، بدليل قول فرعون لهم: ﴿**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾، وبدليل قبول فرعون وإنفاذه لرأيهم، لما قالوا له: ﴿**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** (٣٦) **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** (٣٧)﴾.

ولما برز موسى عليه السلام لهم، وأفشل مؤامراتهم ومخططاتهم، لم يعد أمامهم من خيار؛ فتوجهوا إلى فرعون بالتحريض على ممارسة القمع وإنفاذ الإرادة المستبدة المضلّلة، ولو كان ذلك بالقتل لأبناء جلدتهم والاستحياء لنسائهم التي هي أعراضهم. يقول سبحانه وتعالى كاشفاً مكرهم: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ الأعراف: ١٢٧. فالملأ هنا هم بطانة الحاكم التي تحيط به وتغويه وتعينه على الاستبداد والقمع.

والإمعان في قوله تعالى على لسان الملأ: ﴿**فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ**﴾ يُظهر نزوعاً من فرعون إلى عدم التصادم مع موسى عليه السلام، وبخاصة بعدما انكشف الحق يوم الزينة وظهرت معجزة موسى عليه السلام، وصارت دليلاً على صدق دعوته، ونيته الحقيقية لإصلاح الفساد الذي استشرى في مصر، بسبب الإرادة الفرعونية المستبدّة. يؤيد هذا ما قاله الطبري في أحد توجيهين ذكرهما للآية الكريمة، بأن قول الملأ: «كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين» (٩) فالاستفهام هنا توبيخي، ويحتمل أنه سيق على سبيل التحريض المقرون بالاستنكار.

وقد ذكر الزمخشري رواية إسرائيلية ولم يحكم عليها، مفادها أن فرعون وافق السحرة على الإيمان ستماية ألف سنة (١٠)، وعلى فرض صحة الرواية فإن هذا دافع من الدوافع التي أغضبت الملأ ودفعتهم إلى الإسراع في تحريض فرعون على التقتيل والاستحياء، معلّلين تحريضهم بدعوى الإفساد في الأرض: ﴿**لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ بمعنى «إيقاع الفرقة وتشتيت الشمل «(١١) . وما أشبه الأمس باليوم، فكل من ينادي برفع الظلم والاضطهاد، وكل من يسعى إلى القضاء على الفساد ومصالح المفسدين يُتهم بهذه التهمة.

وخلاصة الأمر أن ما سبق ذكره يبرز جانباً خطيراً من الممارسة الاستبدادية للملأ، التي قد تكون مباشرةً في التحريض، مدعَّمة بتذكير المستبدِّ بذهاب مصالحه وأفولها، وبقلب الحقائق والتمويه وتصوير المصلِح بصورة المفسد، وخاصةً إذا تعلق الأمر بفساد استقر في النفوس، وأصبح حقا في نظر الجماهير، وكان بقاؤه مصلحة عظيمة للحاكم والملأ على حدٍّ سواء.

وليس ببعيد من هذا الموقف ما فعله الملأ من قوم صالح عليه السلام، إذ قالوا لمن آمن للحق: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمه لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ الأعراف: ٧٥. وإنك لترى في قولهم مكرا كبّارا، فهم يشكّكون المؤمنين برسالة الحق:﴿**أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾، «وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه «[١٢].

وإذا كان الملأ أصحاب سطوة وجبروت في المثالين السابقين، فإن هناك صورة أخرى لدور الملأ في تشكيل الاستبداد، هي أضعف في جانب السلبية من صورة ملأ فرعون والملأ من قوم صالح عليه السلام. تلك هي صورة الملأ من قوم سبأ. تجد ذلك إذا نظرت في موقفهم يوم أن عقدت ملكة سبأ مجلساً تطلب مشورتهم فيما جاءها من سليمان عليه السلام ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ** [٢٩] **إِنَّهُ من سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** [٣٠] **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** [٣١] **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** [٣٢] **قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** [٣٣] ﴾ النمل: ٢٩– ٣٣.

ولو أعدت الإمعان مرة بعد أخرى لرأيت حنكةً سياسيةً بالغة الدهاء، ووجدت أيضا موقفاً متسرّعاً من الملأ يدلّ على أن حنكتهم السياسية لم ترقَ إلى مستوى الحدث. فملكة سبإ قالت للملأ: ﴿**إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ**﴾، ثم قصّت عليهم ما في الكتاب، وختمت الموقف بقولها ﴿**أَفْتُونِي فِي أَمْرِي**﴾، فكان جوابهم: ﴿**نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾.

والناظر يرى التغاير جلياً بين ملأ فرعون والملأ من قوم سبأ. فملأ فرعون بادروا بتحريض فرعون، وهذه جرأة زائدة تبين قوة الملأ ودورهم في توجيه الإرادة الفرعونية المستبدة. أما الملأ من قوم سبإ، فلم يبادروا إلى تقديم المشورة إلا بعد أن طُلب إليهم ذلك. وقد كان موقفهم أقلّ عنفا من موقف ملأ فرعون، يدلنا على ذلك قولهم: ﴿**نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾، وهذا إلماح إلى القوة العسكرية والحرب، ولكنه لا يرقى إلى درجة

التصريح بالحرب والتقتيل للمخالفين، ولا يحمل في طياته تأنيبا وإنكارا على ملكتهم، على عكس موقف الملأ من قوم فرعون، الذين بادروا إلى الإنكار على فرعون، والتصريح بالتقتيل والاستحياء عقوبة للمصلحين.

كما أن لموقف الملأ من قوم سبإ بعداً سياسياً وتربوياً غاية في الأهمية، وهو أن الإرادة السياسية التي تُبنى على مشورة الملأ والأخذ برأيهم تَبني في النفوس هيبة ومكانة عميقة وعظيمة لصاحب الإرادة السياسية، وبخاصة أن ملكتهم اعتادت أن لا تنفرد بإنفاذ إرادتها السياسية باستقلالية مطلقة بدليل قولها: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ**﴾، وهو ما دفع الملأ بعد ذلك إلى الاعتراف بحكمة وحنكة ملكتهم، ونصّ الآية الكريمة خير دليل على هذا. فقد أفتوها بما أرادت وعادوا ليقولوا لها بعد ذلك: ﴿**وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾، وما أحرى السياسيين في أيامنا بفهم دور المشورة في بناء جسور الثقة بينهم وبين أقوامهم، من خلال اصطفاء الخيرة منهم، ومن ثَمَّ إشراكهم في بناء الإرادة السياسية التي تنظم للدولة جميع شؤونها على المستويين الداخلي والخارجي.

المبحث الثاني:

سُبل إنفاذ الاستبداد في ضوء القصة القرآنية:

يتحدث القرآن الكريم في قصصه عن طرق متنوعة يتخذها المستبد طريقاً لإنفاذ ما يريد من سياسات وأفكار، **وسأقف في هذا المبحث مع عدد من أهم هذه الطرق وهي**:

- أولاً– الإغراء بالمال:
- ثانياً– تلفيق التهم للمصلحين وسجنهم وقتلهم:
- ثالثاً– ممارسة سياسة الإقصاء للمخالفين:

◄ **المطلب الأول**:

● **الإغراء بالمال والعطايا**:

عادة المستبدين أنهم يسعون دائماً إلى شراء الضمائر الحية التي تسعى إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل. وإن المال يعد واحداً من أكثر المغريات التي يحرص المستبدون على استثمارها وقت حاجتها؛ لما له من أثر بالغ في ثني بعض الناس عن مسيرة الإصلاح التي ينشدون، كيف لا وربنا سبحانه يقول في كتابه الكريم: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ التغابن: ١٥.

والقرآن العظيم يحدثنا عن هذا الأسلوب القديم الجديد، ويبين أنه من أبرز الطرق التي يتخذها المستبد ليسبر غور النفوس، ويعرف معدنها وجوهرها. وهو ما أضحى يسمى في زماننا بالمال السياسي. وهو ذلك المال الذي يستخدم «بطريقة غير سوية من أجل تحقيق العديد من الأهداف، وعلى رأسها التحكم والاستمرار في الحكم». [١٣] وقد ضرب **الله** سبحانه لذلك مثلا فقال على لسان ملكة سبأ: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ النمل: ٣٥. ولما أنكر سليمان عليه السلام هذا، وقال: ﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** [٣٦] **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ النمل: ٣٦– ٣٧، أدركت الملكة أنه عليه السلام لا يباع ولا يشترى، وإنما هو نبي **الله** الذي يلزمها وقومَها أن تذعن له وتتبع الحق الذي جاء به، فما كان منها إلا أن استسلمت لأمره واتبعته.

وقد حدثتنا القصة القرآنية عن بعض نماذج المستبدين الذين يحاولون شراء المصلحين بالمال، ومن ثَمَّ كسْب ودّهم، وتعطيل مسيرتهم الإصلاحية إلى أجل غير مسمى. والناظر في القصص القرآني يجد أن استخدام المال السياسي كان يسير بأكثر من طريقة، ففي مرة يدفع لبعض الناس ليكونوا عونا للمفسدين على فسادهم، وفي أخرى يحاول المفسد أن يجعله ثمناً لضمير المصلح نفسه.

ومثال الأول أنه سبحانه وتعالى ذكر لنا في موطنين ما كان من سحرة فرعون يوم الزينة، حينما طلبوا الأجر من فرعون إن كانوا هم الغالبين. يقول في الموطن الأول: ﴿**وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾ الأعراف: ١١٣، ويقول في الثاني: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾ الشعراء: ٤١.

والحق ان الآيتين الكريمتين تكشفان لنا عن: «جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة، ولا صلة لها بقضية سوى الأجر والمصلحة، وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان «[١٤] وهذا ما يجعلنا ندرك يقيناً أن الناعقين بصلاح من يظهر فسادهم، إنما هم ممن فسدت ضمائرهم، ولم يعد عندهم مبدأ يتمسكون به سوى تحقيق المكاسب اللّامشروعة، فهم ممن يُباعون ويُشترون بمختلف المغريات، سواء كانت مادية أم وظيفية أم غير ذلك.

أما مثال النوع الثاني فنجده في قوله تعالى: ﴿**حم (١) . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)**﴾ فصلت: ١– ٣، لما قرأها النبي

صلى الله عليه وسلم على عتبة بن أبي ربيعة في القصة المشهورة التي يرويها ابن هشام في سيرته. وملخصها أن عتبة بن ربيعة كان سيداً في قومه، فقال يوماً لقومه: ألا أقوم إلى محمد فأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا. ثم قام عتبة بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:» يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك... «[١٥] . وبطبيعة الحال يرفض النبي صلى الله عليه وسلم عرضهم، ويعرض عليهم بدل إغراءاتهم قوله تعالى: ﴿**حم (١) . تَنْزِيْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ (٢) . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ (٣)**﴾ فصلت: ١– ٣. ليثبت للمستبدين في زمانه أنه صاحب رسالة إلهية إصلاحية، جاءت لتهدم الباطل، وتبني عماد الحق والعدل والاستقامة.

◄ **المطلب الثاني**:

● **تلفيق التهم للمصلحين وسجنهم وقتلهم**:

يحاول المستبدون شراء ضمائر المصلحين بأموالهم، فإن لم يكن لهم سبيل إلى ذلك ينتقلون إلى سياسة أخرى، وهي تلفيق التهم وإلصاقها بالمصلحين؛ لتأليب العامة عليهم. ومن الممكن أن تتصاعد المسائل لتصل في النهاية إلى السجن أو القتل، وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة لكل سياسة من هذه السياسات.

أما عن تلفيق التهم، فما أوفر الأمثلة في ذلك وما أكثرها. فما من نبي ولا رسول ولا مصلح إلا كُذِّب من أكابر قومه، من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا. فعن تكذيب المستبدّين للأنبياء يقول سبحانه: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ** [١٢] **وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ** [١٣] **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** [١٤] ﴾ ق: ١٢– ١٤، فما من نبي ولا رسول إلا كذبه أكابر قومه.

ومما يتهم به المصلحون كذلك أنهم سحرة، لا لزرع الكراهية في صدور العامة تجاههم وحسب؛ وإنما لسياسة في غاية الخبث والدهاء، تلك التي ذكرها الرازي بقوله:»إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له، فإذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فإنه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه؟ «. [١٦] وبالنظر في آيات القرآن الكريم نجد أن هذه التهمة حاضرة على لسان كل طاغية مستبد. ففرعون ومن حوله من الملأ قالوها لموسى عليه السلام: ﴿**إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ غافر: ٢٤، وعاد طغاة قريش ليقولوها في وجه أشرف الخلق وأزكاهم صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ ص: ٤.

ومن التهم التي يردّدها المستبدّون ما يدّعونه من جنون المصلحين وذهاب عقولهم. من ذلك ما ذكره الله سبحانه عن قوم نوح عليه السلام: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ**﴾ القمر: ٩، ومن ذلك أيضا ما ذكره الله سبحانه مَن أحوال مفسدي قريش بقوله: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ القلم: ٥١. وإذ لم تنفع التهم في ثني أهل الحق والإصلاح عن مسيرتهم، فإن هناك سبيلاً آخر لا ينساه الطغاة المستبدون، وهو سجن المخالفين وتعذيبهم. ومن أمثلة ذلك ما فعلته زوجة عزيز مصر بيوسف عليه السلام يوم أن امتنع عن تلبية رغبتها التي تعدّ صورة من صور الفساد الأخلاقي والمجتمعي التي سرت بين أفراد الأسر الحاكمة، بدليل أن المرأة لم تستح من صنيعها وإنما جمعت نساء الحاشية من حولها وقالت لهن: ﴿**فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ يوسف: ٣٢، فإن جمعها للنساء وقولها: ﴿**فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾ دليل على تردّي المستوى الأخلاقي بين أفراد تلك الطبقة.

ولما لم يرضخ يوسف عليه السلام لمطلبها، فاستعصم ونأى بنفسه، أصرّت على سجنه وإذلاله. ووجهت زوجها إلى سجنه عليه السلام، وبطبيعة الحال فإن زوجها سيكون مطيعاً لأمرها، خوفاً من سقوط هيبته اجتماعياً- لسوء خلق زوجه- ومن ثَمَّ سقوطه سياسياً بين قومه. وبهذا يبرز دور المرأة بشقه السلبي على الجانبين الأخلاقي والسياسي، حينما تنساق وراء شهواتها، فتظلم وتتهم وتسجن، وكل ذلك لأن المصلح لم يطع أمرها ولم ينفذ رغبتها القبيحة، وبهذا يكون أثرها جلياً في تمرير قرارات ظالمة ليس فيها وجه حق، فزوجها لم يملك مخالفة أمرها مع سابق علمه ببراءة يوسف عليه السلام.

وليس هذا هو المثل الوحيد فهناك ما هو أصرح منه في هذا المقام، وهو تهديد فرعون لموسى عليه السلام، يوم جاء يدعوه إلى توحيد الواحد القهار، فما كان جوابه إلا أن قال لموسى عليه السلام: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ الشعراء: ٢٩. وكذلك فعل أشقياء قريش وطغاتهم لما كان السجن أحد الخيارات المطروحة على طاولتهم؛ لثني محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق، يخبرنا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ الأنفال: ٣٠. ومحل الشاهد قوله تعالى ﴿**لِيُثْبِتُوكَ**﴾. قال صاحب المنار:» فأما الإثبات فالمراد به الشدُّ بالوثاق والإرهاق بالقيد، والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام»[١٧] . فإذ لم تعد التهم نافعة، وإذا لم يكن للسجن والإذلال أثر في ثني المصلحين عن سيرهم في طريق الإصلاح، فما من بدّ عندئذ من التصفية الجسدية، وإنهاء حياة هؤلاء المصلحين.

ويضرب سبحانه مثلا لهذا في فرعون يوم قال للسحرة بعد أن آمنوا لموسى عليه السلام: ﴿**قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ**﴾ طه: ٧١، وإنها لصلافة منه ما بعدها صلافة، فالذين كانوا بالأمس جنده وأحبابه، ومن وعدهم بالأجر والمنزلة القريبة منه، أضحوا اليوم أعداءه، وانتقلوا من دائرة الملأ إلى دائرة المتهمين وذلك ما يشهد به قوله لهم: ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾. ولما لم يستسلم السحرة لفرعون بعد أن عاينوا الحق، قالوا له: ﴿**لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ طه: ٧٢، جنّ جنونه، وأصر على تقتيلهم وتقطيعهم وتصليبهم؛ ليكونوا عبرة لكل من يؤمن بموسى عليه السلام.

وإن البيان القرآني ليشهد بشدة ظلم فرعون وطغيانه، ذلك أنه قال لهم: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ «والتصليب مبالغة في الصّلب... والمبالغة راجعة إلى الكيفية بشدّة الدقّ على الأعواد... ولذلك عدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية تشبيها لشدة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكن الشيء الواقع في وعائه «[١٨]، فكأنه من شدة غيظه أراد أن تكون أجسادهم داخلة في الجذوع.

وقد ذكرت لنا القصة القرآنية طرفاً مما عوقب به أصحاب الأخدود، الذين عُذّبوا بالتحريق جزاء إيمانهم بالحق، يقول سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ البروج: ٤– ٩. وهكذا تبين الآيات الكريمات حنق الطغاة، وتفننهم في تعذيب الصالحين والمصلحين في كل زمان [١٩]. وقد كان بالإمكان قتلهم دون حرقهم، ولكنه أسلوب الطغاة المستبدين الذي يقوم على إرهاب الناس وتخويفهم وزلزلة قلوبهم.

ولا يقف هذا الأسلوب عند فرعون مصر وأصحاب الأخدود، بل هو سبيل كل مستبدٍّ في زمانه، «وكلما قضى فرعون تقمص بآخر، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت إرثها عائلة، وجاءت ولو من وراء البحار، والتصقت بالنسب الفرعوني، ولو بأقل مشابهة من خلق الغطرسة والتأله على النَّاس» [٢٠]. وقد كان القتل خيارا مطروحا عند طغاة قريش، للتخلص ممن نبّه النفوس وأحيا فيها كرامتها، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ الأنفال:

٣٠. وهذا بيان ربّاني تنكشف به أسرار نفس المستبد، الذي اعتاد أن يأمر فيطاع، وأن يكون أمره فوق كل أمر. وإذا كان هذا حال فرعون مع السحرة لما آمنوا، وحال طغاة قريش مع خير البرية، فإنه حال كل المستبدين من بعدهم مع كل مصلح لا يستجيب لرغباتهم، ولا تنفع معه التهم، ولا يثنيه التعذيب أو الإذلال عن متابعة سيره على طريق الحق والعدل.

◄ **المطلب الثالث**:

● **ممارسة سياسة إقصاء المخالفين**:

يحدثنا كتاب **الله** عن سياسة أخرى من سياسات المستبدين، وهي سياسة النفي والإقصاء للمخالفين، والحق أن الآيات الكريمات تشهد بأن سياسة النفي والإقصاء كانت تتخذ سبلا شتَّى. فمرة يأتمر القوم كلهم لإخراج المصلحين، يشهد لذلك قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ الأعراف: ٨٢. ومرة يأتمر الملأ كما كان من قوم شعيب عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾ الأعراف: ٨٨. وكما كان من أشقياء قريش مع خير البرية عليه أزكى صلاة وسلام: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ الأنفال: ٣٠ ومرة يكون الأمر من المستبد نفسه، وذلك حال فرعون مع موسى عليه السلام ومن آمنوا معه، يشهد بهذا قوله تعالى: ﴿**فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا**﴾ الإسراء: ١٠٣.

وخلاصة ما سبق أن سياسة النفي والإقصاء سياسة قديمة جديدة، بدأت قديما، ولم تنته عند زمن. بل هي وسيلة ناجعة في نظر المستبدين مهما اختلف زمانهم ومكانهم. وما أكثر المهجّرين من أوطانهم، بحجة إثارة البلابل والفتن، والحق أنهم مصلحون أرّقوا المستبدين وأقضّوا مضاجعهم، فكان سبيل الخلاص منهم نفيهم كيلا يراهم أو يسمع بهم أحد.

وإنك إذا رأيت حجج المتآمرين لإخراج المصلحين، رأيتها جميعاً تتفق في غاية واحدة، هي الحفاظ على جهل الأمة المسحوقة، والحرص على عدم إبقاء أي وسيلة توعية تعيد لها عقلها وكينونتها؛ لما لذلك من خطر على بقاء المستبد وتهديد مصالحه. ولا غرابة في ذلك لأن: «بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً. يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها. والطرفان يتجاذبان العوام، ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا»[٢١]. ولا ينتهي الأمر بالنفي ولا يقف عنده، ولكنه قد يتخذ شكلاً آخر من

أشكال الإقصاء، كتحييد المصلحين عن المصالح القيادية، لما لها من أثر بالغ الأهمية في التعجيل بالإصلاح، فكان من الضروري أن يكون المصلحون أبعد الناس عن تسلُّم زمام القيادة في المصالح القيادية العليا.

ومن صور الإقصاء أيضا محاولة إيجاد نوع من الاغتراب الداخلي في نفس المصلح. بمعنى إيجاد الإحساس بالاغتراب في نفس المصلح وهو بين قومه وعشيرته. ويكون ذلك من خلال تأليب العامة عليه، وتشكيكهم بنواياه، وتشويه صورته أمامهم من خلال حملات إعلامية منظمة، يحاول المستبدون من خلالها هدم كل لبنة حق، أرساها أهل الإصلاح. وذلك بأن يتهموا المصلحين بزعزعة الأمن الداخلي وتفريق الصفوف ونشر الفتن بين أفراد المجتمع. من ذلك أن فرعون قال لقومه: ﴿**ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾ غافر: ٢٦، وهو لا يكتفي بتأليب العامة على موسى عليه السلام، وإنما يظهر نفسه بمظهر الخائف على مصالح أمته، الراعي لها من أن يغتالها أحد. وهو يريد من وراء هذا أن يشكك الناس في صدق موسى عليه السلام، وأن يظهره بصورة الخائن لأمته، الساعي إلى خلخلة نظامها الداخلي وأمنها واستقرارها، ليصل في النهاية إلى إيجاد عازل يعزل بين موسى عليه السلام وبين قومه.

وبمثل ذلك قام طغاة قريش لما اتهموا خير البرية عليه الصلاة والسلام فقالوا: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا**﴾ الفرقان: ٤، وكأنَّ لسان حالهم يقول إن هناك مؤامرة يحيكها محمد وجماعة أخرى تعينه عليها، يريدون من خلالها زعزعة الاستقرار والأمن، وهذه هي حجة كل المستبدين، وسلاحهم الذين يخوفون به عامة الناس في زمانهم.

الخاتمة والتوصيات:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد البريّات، وبعد: فإنني أحمد الجليل على نعمه السابغة، وأسأله توفيقا من لدنه يعيننا به على العناية بأشرف كتبه واكتناه معانيه، كما يحب ربنا ويرضى.

وبعد أن أنهيت دراستي الموسومة بـ: (دوافع تشكّل الاستبداد وسبل إنفاذه في ضوء القصة القرآنية) ووقفت خلال مسيرتي معها عند بعض أهم معالمها فبينت دوافع تشكل الاستبداد، والسبل التي يتبعها المستبدون في إنفاذ إرادتهم واستبدادهم، **أختم بأهم النتائج التي خلصت بها من هذه الدراسة**:

- **أولاً**: الاستبداد مفهوم عالمي يعرفه القاصي والداني، وقد انتهت الدراسة إلى تعريف

الاستبداد بأنه التغلب والانفراد بالسلطة، والسيطرة التامة على مقاليد الدولة واغتصابها من الأمة دون مشورة ورضاً منهم ودون خوف تبعة.

- **ثانياً**: ما زال القرآن العظيم ينثر لكل باحث من لآلئ المعاني ما يكشف اللثام عن عظمته، ويؤكد يوما بعد آخر بأنه الكتاب الذي لا يبارى، والقصة القرآنية هي أسلوب من أساليبه الرفيعة التي عالجت وما زالت تعالج كبريات القضايا على مرّ الدهور.
- **ثالثاً**: الاستبداد نقيض العلم، ويستحيل أن يجتمع كلاهما في أمة واحدة.
- **رابعاً**: السبب الذي يدفع المستبدين إلى طغيانهم هو الحفاظ على مصالحهم ومكتسباتهم، وهم مستعدون في سبيل الحفاظ عليها إلى قتل أمة وتشريد أخرى.
- **خامساً**: تنوع أساليب الطغاة والمستبدين في إنفاذ إرادتهم، وعدم تورّعهم عن فعل كل ما يضمن لهم ضمان تحقق مصالحهم.

أما عن أهم التوصيات فأقول:

- **أولاً**: أوصي الباحثين بضرورة التركيز على هذا المفهوم ودراسته بشكل موسّع في ضوء القصة القرآنية. وحبّذا لو انصرفت همة باحث إلى كتابة رسالة علمية في هذا الجانب يتناول به الاستبداد في ضوء القصة القرآنية بشكل موسع، وبخاصة أني لم أجد أيّ رسالة علمية عنيت بهذا العنوان تحديداً.
- **ثانياً**: ضرورة نشر الوعي والعلم، وتعزيز انتماء الأجيال إلى الهوية الإسلامية، فإن هذا من آكد الأساليب وأنجعها في مقابلة صور الاستبداد والظلم. وضرورة وعي الدور الحقيقي ومسؤولية كل فرد من أفراد الأمة لدوره في بناء بيت الأمة الذي لا يجد فيه الاستبداد ممراً ولا مقاماً. وضرورة تقديم العون والمشورة لأهل الحل والعقد في معالجة مختلف القضايا على المستويين الداخلي والخارجي، بصورة الحريص على مصالح الأمة، لا بصورة الناقد الذي يسعى إلى إظهار العثرات وتتبع الزلّات.

الهوامش:

١. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى ٧١١هـ) ، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ ه، فصل الفاء، ج٢، ص٦٤.

٢. انظر لسان العرب، ابن منظور، فصل الباء، ج٣، ص٨١. وانظر أيضا المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، القاهرة، باب الباء، ج١، ص٤٢.

٣. موسوعة السياسة، كيالي، عبد الوهاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ج١، ص١٧٨.

٤. طبائع الاستبداد ومصارع العباد، الكواكبي، عبد الرحمن، تقديم د أسعد الحمراني، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ص٣٧.

٥. الاستبداد السياسي، السلمي، عبد الرحيم، مقالة منشورة على موقع صيد الفوائد بتاريخ ١/ ١٢/ ١٤٣٤هـ.

٦. انظر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى ٣١٠ هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م ج١٩، ص٥٨٠.

٧. تفسير التحرير والتنوير أو تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧ م، ج ٢٠، ص١٢١.

٨. للاستزادة حول هذه الروايات انظر تفسير الطبري، الطبري، ، مرجع سابق، ج١٩، ص٥٨٠ وما بعدها. وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م، ج٦، ص٢٣٧ وما بعدها. وانظر معالم التنزيل في تفسير القرآن أو تفسير البغوي، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى٥١٠هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ج٣، ص٥٣٥.

٩. تفسير الطبري، الطبري، مرجع سابق، ج١٣، ص٣٧.

١٠. الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل أو تفسير الكشاف، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ه، ج٢، ص١٤٣.

١١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير أو تفسير الشوكاني، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى ١٢٥٠ هـ) ، دار الفكر بيروت، بدون طبعة او تاريخ نشر، ج٢، ص٢٦٨.

١٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢ ه، ج٣، ص١٣١٣.

١٣. مقال بعنوان المال السياسي وشراء الذمم، سعيد خليل العبسي، موقع القدس العربي، ، نشر بتاريخ ٢٨/ ٢/ ٢٠١٣م، للاستزادة انظر الموقع الالكتروني

http:/ / www. alqudsalarabi. info/ index. asp

١٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٥٩٥.

١٥. انظر السيرة النبوية، ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (٢١٣هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥ م، ج١، ص٢٩٣، بتصرف يسير.

١٦. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م، ج٢٢، ص٧٠.

١٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ج٩، ص٥٤٠.

١٨. التحرير والتنوير أو تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ، ج١٦، ص٢٦٥، بتصرف.

١٩. للاستزادة ارجع إلى تفسير الطبري، الطبري، ج ٢٤، ص٣٣١ وما بعدها. و تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦، ص٣٦٦ وما بعدها.

٢٠. الأفغاني، جمال الدين، الأعمال الكاملة؛ الكتابات السياسية، دراسة وتحقيق د محمَّد عمارة، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات، بيروت، الطبعة الأَولى، ١٩٨١م، ج٢، ص٣٣٢.

٢١. طبائع الاستبداد، الكواكبي، مرجع سابق، ص ٦٧.

المصادر والمراجع:

أولاً ـ الكتب:

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (المتوفى٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم طبعة أو تاريخ نشر.

٢. الأعمال الكاملة الكتابات السِياسية، الأفغاني، جمال الدين، دراسة وتحقيق د محمَّد عمارة، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٣. التحرير والتنوير أو تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى١٣٩٣هـ) ،

أ. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧ م.

ب. الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ.

٤. تفسير القرآن الحكيم أو تفسير المنار، محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

٥. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى٧٧٤هـ) ، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م.

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى٣١٠ هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م.

٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى١٢٧٠هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٨. السيرة النبوية، ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (٢١٣هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٥٥ م.

٩. طبائع الاستبداد ومصارع العباد، الكواكبي، عبد الرحمن، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى١٢٥٠هـ) ، دار الفكر بيروت، بدون طبعة أو تاريخ نشر.

١١. في ظلال القرآن، سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى١٣٨٥هـ) دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢ هـ.

١٢. الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

١٣. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى٧١١هـ) ، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

١٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى٥٤٢هـ) تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

١٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن أو تفسير البغوي، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى٥١٠هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.

١٦. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية) ، دار الدعوة، القاهرة، بدون طبعة وتاريخ نشر.

١٧. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م.

١٨. موسوعة السياسة، كيالي، عبد الوهاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

ثانياً ـ المقالات:

١. الاستبداد السياسي، السلمي، عبد الرحيم، موقع صيد الفوائد.

٢. المال السياسي وشراء الذمم، العبسي، سعيد خليل، موقع القدس العربي.

9. References should follow rules as follows:

   (a) If the reference is a book, then it has to include the author name, book title, translator if any, publisher, place of publication, edition, publication year, page number.

   (b) If the reference is a magazine, then it has to include the author, paper title, magazine name, issue number order by last name of the author.

10. References have to be arranged in alphabetical order by last name of the author.

11. The researcher can use the APA style in documenting scientific and applied topics where he points to the author footnotes.

Guidelines for Authors

The Journal of Al-Quds Open University For Research & Studies Publishes Original research documents and scientific studies for faculty members and researchers in Alquds Open University and other local, Arab, and International universities with special focus on topics that deal with open education. The Journal accepts papers offered to scientific conferences.

Researchers who wish to publish their papers are required to abide by the following rules:

1. Papers are accepted int both English and Arabic.
2. each paper should not exceed 32 pages or 7500 words including footnotes and references.
3. Each paper has to add new findings or extra knowledge in its field.
4. Papers have to be on a "CD" or "E-mail" accompanied by three hard copies. Nothing is returnable in either case: published or not.
5. An abstract of 100 to 150 words has to be included. The language of the abstract has to be English if the paper is in Arabic and has to be Arabic if the paper is in English.
6. The paper will be published if it is accepted by at least two revisers. The Journal will appoint the revisers who has the same degree or higher than the researcher himself.
7. The researcher should not include anything personal in his paper.
8. The owner of the published paper will receive one copy of the Journal in which his paper is published.